رثاء على الصديق الراحل

فليكس فارس

للدكتور إسماعيل أحمد أدهم

[رثاء على جثمان الصديق الراحل فليكس فارس المسجى بين الورود ألقيت فى الحفل الكنائسى الذى أقيم للصلاة على روحه عصر الأحد ٥ يونيه ١٩٣٩ بهيو الكنيسة المارونية]

هنالك من الناس من تعرفهم فتشعر كأن لك بهم معرفة من قبل . ذلك لأنهم لا يعرفون عن طريق الصلات الزمنية ، وإنما هم يعرفون عن طريق الجو الذى يخلقونه حولهم . وما كان الصديق الراحل فليكس فارس إلا واحداً من هؤلاء : عرفته صيف عام ١٩٣٦ فسرعان ما تآلفنا وتآخينا . ولم يمض القليل من الزمن حتى أصبحنا إلفين لا ينقضى الأسبوع دون أن نتقابل فنتجاذب الحديث فى شأن من شئون الحياة التى نحياها . وكثيراً ما كان يدور هذا الحديث على عوالم الفكر والشعور . وظلت صلتى بالراحل الكريم قوية حتى آخر لحظاته . فقد كنا حولة فى الأيام الأخيرة وهو يجود بأنفاسه الأخيرة . لهذا كان نبأ نعيه لنا معشر أصحابه وخلانه صدمة أليمة . وكان قاسياً علينا أن نراه أمس حيًّا بيننا يملأ جونا بروحه حياة وأنساً ، وإذا به اليوم قد همد فيه عنصر الحياة الذى كان يطوف على شفتيه ابتسامة وعلى شغاف قلبه حنواً وعطفاً ...

إن هول فجيعتنا فى فليكس فارس كبيرة ، جعل الدموع تجمد فى أعيننا فظللنا بسحابة قاتمة أرسلت سوادها على صفحات قلوبنا فغمرتنا موجة من الكآبة ، فإذا لم تظهر على صفحات وجوهنا — نحن معشر خلانه — فداحة المصاب دموعاً ... فذلك لأن مصيبتنا بموت الصديق أقوى من أن يظهرها بكاء أو دموع ...

إيه أيها الراحل الكريم ! ... إن تلك الدموع التى جرت من عينيك وتجمعت فى مآقيك ثم سالت على صفحات وجهك يوم زرتك للمرة الأخيرة ؛ وإن كلماتك التى خرجت من أعماقك مختلطة بنشيجك توصينى خيراً بفلذات كبدك ، كل هذه دخلت فى عالم ذكرياتى ولن تذهب من نفسى ، فلقد دلت كلماتك وعبراتك على أن فى الحياة عنصراً أقوى من كل القيود والسدود التى يقيمها البشر أبناء الحياة الواحدة للتفرقة فيما بينهم ، هذا العنصر يتجلى ساعة يأخذ الإنسان فى الانحدار من عالم الحياة ، وساعة يحس بانحسار عنصر الحياة عن جسده ؛ فى ذلك الحين يحس بشعور أقوى من كل إحساس بعوامل التفرقة بين أبناء الحياة الواحدة ، أقوى من الإحساس بالدين والوطن والجنس . وهذا الشعور يدفعه إلى أن يمد نفسه على رحاب الحياة وينسحب عليها متعلقاً بمظهرها الخالد التأجج ناراً والمتجدد فى أبناء الحياة من جيل إلى جيل ، فيرى فى كل إنسان أباً لأولاده .

إيه يا أبا حبيب ! ... إن آخر الكلمات التى تزودتها منك دارت حول الإيمان والحياة ، وهى كلمات لن تذهب معانيها وصورها من رأسى لأنها تدل على إيمانك العميق بالحياة ، ومن هنا كانت رحابة اعتقادك التى تجوز أن تكون الحقيقة حتى فى كلام خصمك ... خصمك فى الاعتقاد والرأى ، ومن هنا أيضاً فهمت سر اتساع أفق اعتقادك لآراء التى كانت تقف على نقيض آرائك .

إيه يا أبا أديب ! ... لقد فقدتُ بارتحالك شيئاً من نفسى كنت ترده علىّ حين ألقاك . وفقد أصدقاؤك بارتحالك إنساناً ودوداً براً ... وما أقل الأناسى فى هذا الزمان ! ... أنظر أيها الراحل الكريم من وراء أكفانك تجدنا جمع أصدقائك قد بللت أذهاننا فداحة مصابنا فيك . ها هو ذا صديقك « خليل » وأخوه « صديق » أطلالها يبكيان فقدك . وها هو « أدهم » الحبيب إلى نفسك الذى كنت تداعبه باسم « الحكيم » فقد اليوم حكمته ؛ وقد تبلبل منه الذهن واختلطت فى صدره المشاعر . لقد صدم الكل بارتحالك فذرفوا الدموع سخينة من أجلك ...

إيه يا أبا سلوى ! ... لقد كنت باتساع أفق شعورك ورحابة مدى نفسك تغمرنا بروحك وترتفع بنفوسنا وتضرب لنا مثل

وفى التاج : اللواحى : العذال ، والعذال من جموع العاذل .

وفى اللسان : اللواحى : العواذل

وقال الجوهرى فى (صحاحه) : قول الراجز :

لقد علمتُ الأجلَّ الباقى أن لا تردُّ القدرَ الرواقى

كأنه جمع امرأة راقية أو رجلاً راقية بالهاء للمبالغة . أو رجلاً راقياً بغير هاء حتى ينضوى هذا الجمع إلى ذاك الجيش ...

هذه جريدة ما وجدناه ، وقد يكون هنالك ما ذهب علينا ، وهى العربية المتبحبحة[1] فى كلماتها ولغاتها . قال الإمام ابن ادريس الشافعى فى رسالته فى أصول الفقه : « لسان العرب أوسع الألسنة مذهباً ، وأكثرها ألفاظاً . ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبى[2] » . « يم »

(١) تقول العامة : فلان متبحبح يا سيدى فى عيشته . ولفظة القوم — كما ترى — فصيحة صحيحة (٢) غير بالرفع صفة إنسان ، وتنصب على الاستثناء